جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
السنة الرابعة

محاضرات
في تاريخ أمريكا
الحديث والمعاصر

د: حسام النايف
العام الدراسي ٢٠٢٠ – ٢٠٢١

المحاضرة الأولى
القارة الأمريكية ما قبل كولومبس

مقدمة:

يقول آدم سميث عام ١٧٧٦ : "**إن اكتشاف أمريكا، واكتشاف طريق الهند الشرقية عبر رأس الرجاء الصالح هما أعظم وأهم حدثين في تاريخ البشرية. لا تستطيع حكمة البشر أن تتنبأ أية فوائد أو أية مصائب للبشرية ستنتج عن هذين الحدثين العظيمين من الآن فصاعداً. إن اكتشاف أمريكا قدم مساعدة جوهرية لوضع أوروبا، فاتحاً سوقاً جديدة لا تُستنفذ أدت إلى توسع ضخم للقوى المنتجة وللدخل الحقيقي والثروة**". نظرياً "**كان على نظام التبادل الجديد أن يبرهن، على نحو طبيعي، على نفعه للقارة الجديدة، كما كان قد فعل نحو القارة القديمة بالتأكيد**"

بعد مرور أكثر من خمسة قرون لا تزال رحلة كريستوفر كولومبوس تثير المزيد من الأسئلة. أسئلة حول أهمية الرحلة. وأخرى حول الرجل الذي قام بالرحلة. ***هل كانت فتحاً جديداً من فتوح البشرية أم دماراً مؤكداً لحضارة نقية عاشت وتطورت بعيداً عن آفات العالم القديم؟ وهل كان الرجل بطلاً ومكتشفاً باهراً أم سفاحاً لا يقل هولاً عن بقية السفاحين الذين عرفتهم البشرية؟*** فالرحلة كانت نهاية زمن وبداية زمن جديد. في العام نفسه (١٤٩٢) سقطت آخر قلاع المسلمين في غرناطة وبدأ عصر الأفول العربي. استولت على غرناطة الملكة نفسها التي مولت رحلة كولومبوس وباركتها. بدأت مرثية الغروب للحضارة العربية، وأعلنت الحضارة الغربية انتصارها المدوي، سواء في العالم القديم عندما حاصرت كل طرق التجارة التقليدية باكتشافها لطرق بحرية جديدة وتنامت قوتها العسكرية ضد كل رفاق الحضارة القديمة، أو في العالم الجديد عندما اقتحمت مجاهل الأطلسي حتى تكتشف قارة كاملة. وهكذا تصبح ذكرى كولومبوس مناسبة إنسانية أكثر منها مناسبة تهم أمريكا أو أوروبا وحدها.

- وفي أمريكا الشمالية تقوم حالياً أقوى دولة في العالم .
- أما الجنوبية، تحت الاسم الجديد لأمريكا اللاتينية، فتمثل إحدى أكثر الأفكار دينامكية في العالم المعاصر. وقد وضعتها سلسلة من العوامل في مكان الصدارة من التوقع العام : أول هذه العوامل هو الانفجار السكاني، إذا قبلنا هذا التصنيف التكنولوجي التي يصف عملية الميلاد، فمعدل تزايد القارة هو أكبر معدل في العالم :٩،٢ % سنويا .وتعدادها الحالي يزيد

على ٢٧٠ مليونا من السكان، موزعين بصورة غير منتظمة على مدى ٢١ مليونا من الكيلومترات المربعة. هذا الانفجار، الذي يجرى في إطار السياق الاقتصادي المسمى بالتخلف، يهدد بأن يتحول، بدوره، إلى انفجار سياسي.

أولاً– قضية الاسم:

عندما نتحدث عن أمريكا فإن أول شيء يتبادر إلى أذهاننا هو قضية الاسم، فقد أطلق اسم أمريكا على القارة الجديدة تيمناً بالبحارة أمريكو فيسبوتشي ويشمل هذا الاسم القسمان الشمالي والجنوبي من القارة. حيث استقرت في القسم الشمالي الولايات المتحدة الأمريكية أو ما سمي باسم أمريكا الأنكلوساكسونية. أما في القسم الجنوبي فوجد ما عرف باسم دول أمريكا الجنوبية أو اللاتينية.

لقد قيل عن النصف الغربي للكرة الأرضية بأنه قارة الأخطاء، لأن العالم الجديد قد أكتشف وسُمّي خطأ ومازال يخطئ الكثيرون الذين يحاولون تفسير هذا العالم إلى يومنا هذا. لقد أخطأ الأوربيون الذين كانوا يبحثون عن طريق إلى قارة آسيا، وذلك حينما اعتقدوا بأنهم وصلوا للشرق الأقصى، وأطلقوا على هذه الأراضي أسم الهند (Indias) ولكي يصححوا هذا الاسم الخطأ، فإنهم أضافوا إليه بعد فترة صفة الغربية (Occidental) أو الغربي، والتي يمكن اعتبارها أيضا صفة خاطئة، وأصبحت تعرف باسم الهند الغربية (Indias Occidental) لكي يتميز عن الهند الشرقية.

كما أُطلق على الأراضي التي زارها كولومبس –**خطأ أيضاً**– اسم أمريكا تكريماً للبحارة الإيطالي أمريكو فيسبوتشي (Américo Vespucio)، والذي يعد أحد الأوائل الذين حددوا معالم هذه الأراضي كجزء لا يتجزأ من العالم الجديد، كما أنهم أخطئوا أيضا على الصعيد العالمي في تحديد كلمة أمريكا على أنها فقط جزء من القارة، فقد كانت أمريكا أساسا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر هي ذلك العالم الجديد الذي يحتله الإسبان والبرتغال منذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر. فعندما تقال كلمة أمريكا في شبه الجزيرة الأيبيرية كان يقصد بها، في الواقع، الأراضي الإسبانية الواقعة في نصف الكرة الغربي، وحاليا نجد أن كلمة أمريكا تعرف بها على المستوى العالمي الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا نجد أنفسنا مستمرين في الخطأ.

لو دققنا جيدا باللغة الإسبانية لوجدنا العديد من الأسماء التي استخدمت للتعبير عن هذه المنطقة ومن أهمها أمريكا الأيبيرية (Ibero-américa)، أمريكا الإسبانية (-américa

Hispano)، أمريكا الهندية (Indo-américa)، أمريكا الجنوبية (sud-américa)، أمريكا اللاتينية (América-latina)، ولو دققنا الملاحظة حول هذه الأسماء لوجدنا فيها أخطاء كثيرة :

- فأمريكا الأيبيرية أسم غير دقيق لأنه يستبعد دولتين هما سورينام وهاييتي.
- أما بالنسبة لأمريكا الإسبانية فهو لا يأخذ بعين الاعتبار الأغلبية الساحقة من الهنود (السكان الأصليين في القارة)، والزنوج، والأجناس الأخرى، والتي تكون اليوم شعوباً تغلب عليها الصفة السائدة وهي صفة المهجنين أو الملونين أو ذوي الأصول الهندية الأمريكية.

ويؤكد عدد كبير من المؤرخين بأن الميراث الثقافي الإسباني تحديداً هو الذي وحد العناصر المتنافرة جداً الموجودة، والتي تشكل هذا الواقع في العصر الحاضر، أي أمريكا الإسبانية المهيمنة أو الملونة.

- أما بالنسبة للفظ **أمريكا الجنوبية** فقد استخدم في الأرجنتين منذ انعقاد مؤتمر توكومان (Tucuman) عام ١٨١٦ وهذا اللفظ بما يعنيه من ضيق في المساحة لا يتفق مع المساحة الشاسعة للمنطقة.

- أما بالنسبة لمصطلح أمريكا الهندية فقد دافع عنه بشكل أساسي أصحاب الأرض الأصليين (أو من تبقى منهم)، فقد اعتبر المدافعين عن أمريكا الهندية أن هذا اللفظ يدعو إلى المطالبة بالتفاؤل إذ أنه يتضمن كل الهنود والإسبان والبرتغاليين والزنوج والملونين، كما يتضمن كل الجماعات العرقية التي أتت من أوروبا وإفريقيا والشرق، كما أن هذا المصطلح لا يعطي استثناء ولا أولوية لكل ما هو هندي، لأن مقطع **إندو** الذي يدخل على كلمة أمريكا، والذي يعني هندي، ليس مشتقاً في هذا المقام من كلمة هندي، ولكنه مشتق من أسم القارة، والذي كان مستخدما منذ عام ١٤٩٢، ولفترة طويلة من الزمن امتدت حتى القرن الثامن عشر. والذين يفضلون إطلاق هذا الاسم إنما يفضلونه لإدراج جميع الأجناس تحت هذا الاسم، وكذلك الوقوف على الإسهامات الثقافية المختلفة للفترات التاريخية.

ونأتي الآن إلى مصطلح **أمريكا اللاتينية**، فما هي أمريكا اللاتينية؟ ولماذا نسميها اللاتينية؟

من بين الدول التي حققت اكتشاف القارة الجديدة وغزوها واستعمارها كانت ثلاثة منها لاتينية لغوياً، وهي إسبانيا والبرتغال وفرنسا، ومن ثم فإن أشمل مفهوم تاريخي للإقليم يجب أن

يضم كل أراضي القارة الجديدة التي سكنتها تلك القوى، المعارضة في مجموعها لأمريكا الأنغلوسكسونية المتمركزة في الشمال.

بالنسبة لتعبير أمريكا اللاتينية فقد ظهر لأول مرة في كتابات المؤرخين الفرنسيين في القرن التاسع عشر وشاع استخدامه إلى وقتنا الحالي. حيث يقول إستواردو نوييث " في أواخر القرن التاسع عشر يبدأ التمييز بين ما هو أمريكي شمالي وما هو أمريكي لاتيني بسبب نشوء الظاهرة السياسية لاستقلال الشمال"، ويبدأ بين الكتاب الفرنسيين قبل كل شيء استخدام تعريفات جديدة لأمور أمريكا غير السكسونية، مثل دول أمريكا اللاتينية، وشعوب أمريكا اللاتينية، وديمقراطية أمريكا اللاتينية. وهذه التعبيرات الجديدة تميل إلى مفهوم هو في وقت واحد عرقي، وثقافي، وسياسي، ولكن حدث أنها جاءت لتحل محل تعبيرات أخرى ذات مضمون جغرافي صرف مثل أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى وأمريكا الاسترالية.

وهكذا ينشأ الخلط الأول حول أمريكا اللاتينية، ففي المفهوم الجغرافي يظل التعبير مقتصراً على شبه القارة الجنوبي، الإيبيرو أمريكي بصورة أساسية (أي الأسباني والبرتغالي)، أما المفهوم الجديد فيتسع كذلك للفرنسيين المقيمين في أمريكا الشمالية.

وكما هو واضح فإن المحصلة التي تؤدي بنا إليها فكرة اللاتينية تتجاوز تلك الفكرة ذاتها، وإذا حاولنا الآن الرجوع إلى الوضع الأصلي للإنسان الأميركي، فإن الصفة في تعبير أمريكا اللاتينية تذوب في السياق التاريخي، ونجد أنفسنا غارقين في الجوهر البشري الخاص للموصوف، الذي من الواضح أنه أسبق مما هو أوربي وغريب عنه. وبذلك نجد أنفسنا في مواجهة الثقافات العظيمة السابقة على الاكتشاف، وفي مقدمتها ثقافة أمريكا الوسطى والأنديز، والتي قضى عليها غزو القرن السادس عشر، ولكنه في الوقت نفسه منحها حياة جديدة بقدر ما حوّلها إلى شرط ضروري لعملية أوربية، كما أثرت هذه العملية على سكان أمريكا المتبقين، اللذين نالوا في تلك الفترة درجات أدق من التطور، أولئك السكان الذين يطلق عليهم كجنس أسم الهنود من قبل المكتشفين بدافع الخطأ الجغرافي الهائل الذي حملهم على الاعتقاد بأنهم وصلوا إلى آسيا، وتحديداً الهند.

بالإضافة إلى ذلك، يجب التأكيد، داخل أمريكا اللاتينية الحالية، على وجود عالم آخر غير لاتيني بصورة جذرية :هو الإفريقي. وطبقا للنظرية المسماة "**من القارات إلى الانجراف**" فإن أمريكا

كانت تشكل، في عصر جيولوجي سحيق، وحدة عضوية مع إفريقيا، وبانفصالها إثر ذلك بفعل القوى الجوفية في كوكبنا ، اكتسبت ذاتيتها كقارة. وفي تلك المغامرة الرائعة، انتزعت القارة الأمريكية نباتات وحيوانات إفريقيا فقط، دون بشرها.

كذلك قدم الإفريقيون بعد ذلك إلى أمريكا بزمن لا يحصى، أي في العصور التاريخية. ففي الكاريبي الأخضر الشفاف، في ذلك البحر الذي يكشف في دعة عن حميميته ، وفي تلك الجزر التي ترصعه بإطار ثمين مزدوج من الطحلب والرمل، جرت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الظاهرة الفظّة لتجارة العبيد ***"استخدام البشر من لون معين كأدوات من جانب بشر من لون آخر"***. تم اصطياد ونقل مائة مليون من إفريقيا، لم يصل سوى ثلث عددهم إلى وجهتهم الأمريكية ورغم ذلك أدت هذه العملية إلى النتيجة المدهشة التي يمكننا الآن رؤيتها : فقد أضاف العبيد إلى سادتهم الكثير، ناقلين إليهم كل ما استطاعوا الحفاظ عليه من ثقافتهم ، ومعلمين إياهم الكثير من الأمور، من الغناء والرقص حتى النضال من أجل حريتهم.

وفي الوقت نفسه فإن ما هو إفريقي في أمريكا اللاتينية يصبح هو السمة المشتركة التي تربطها مع أمريكا الأنجلو سكسونية، إذ أن ذلك الجنس وثقافته هما اللذان يتوليان اللحمة بين جزئي شبه القارة اللذين يشكلان الأمريكتين. فجزر الكاريبي وأمريكا الوسطى تمثل انتقالاً بين أمريكا الجنوبية، اللاتينية بصورة نموذجية، وأمريكا الشمالية، الأنجلو سكسونية بصورة نموذجية. في هذه المنطقة لا يصبح دقيقا حتى ذلك التحديد المتبادل والأساسي بين تلكما الثقافتين المستعمرتين، إذ أن كلتيهما قد تعايشتا ومازالتا تتعايشان فيها.

وأمريكا الإفريقية هذه محسوسة بقوة، لا في هذه المنطقة الوسيطة فحسب، بل كذلك في حدودها مع المنطقتين الأخريين، أي شمالي أمريكا الجنوبية، وجنوبي أمريكا الشمالية. بحيث تمثل هذه البينية، (الوضعية الوسطى) في الآن ذاته حاجزاً وطريقاً معاً كما تمثل في كل الحالات إثراء للنسق الكلاسيكي الذي نشأ منه مفهوم أمريكا اللاتينية نفسه : فالأمريكتان المتباعدتان تتقاربان في ثقافة ثالثة لدرجة أن تشكلا ، سوياً ، أفرو أمريكا واحدة ، هي صلة الوصل التي تتجه إلى توحيد الأمريكيات الجغرافية الثلاث ثقافياً.

ثانياً – أمريكا ما قبل كولومبس:

لم تكن القارة الجديدة – بطبيعة الحال – خالية من السكان، ولا من الحضارات، ولكن القسم الأكبر من سكانها كان قد تجمع في المناطق الوسطى من القارة. ويتفق معظم علماء الأجناس – الآن – على أن السكان الذين أسماهم كولومبس بالهنود إنما انحدروا من مهاجرين أتوا من آسيا إلى أمريكا عن طريق جزر آلوتيا Alutia (شمال غرب ألاسكا) بعد نهاية العصر الجليدي. والأرجح أن هؤلاء ينتمون إلى العنصر المغولي الذي ينتمي إليه الصينيون وأنهم هاجروا من شمال آسيا إلى شمال أمريكا وأخذوا يتجهون نحو الجنوب بحثا عن وسائل أفضل للمعيشة وظلوا فترة طويلة يعيشون على الصيد والقنص. ويجهل علماء الأجناس متى بدأت هذه الشعوب بالانتقال إلى مرحلة الزراعة. ولكن هذا الانتقال، على أية حال، كان قد أجبرهم على الاستقرار وبالتالي أدى إلى قيام حضارات مزدهرة، وأن بعضهم توصل إلى معرفة واستخدام المعادن .

وقد شهدت هذه الإمبراطوريات والحضارات عظمة وتوهج في فنون البناء والنحت والنقش والصياغة والخزف والأدب والكتابة والحساب والفلك والأساطير، تساوت في عظمتها مع حضارات العالم القديم وتفوقت عليه في بعض المجالات.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحضارات كانت ثلاث: الآزتكس، الإنكاس ، المایاس (Aztecs, Incas, Mayas) .

أ – حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية (اللاتينية):

١ – –إمبراطورية المايا

امتدت حضارة المايا من منتصف القرن الثالث الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي. وخلال هذه الفترة أسس المايا أكبر مدنهم وحققوا إنجازاتهم المتميزة في مجالات الأدب والعلوم. وبالإضافة إلى ذلك، بدأ المايا ممارسة تشييد النصب التذكارية تخليدًا للأحداث المهمة في حياة قادتهم.

وفي القرون الثلاثة الأولى في المرحلة الكلاسيكية كانت المدينة المكسيكية، تيويتواكان مركز إمبراطورية كبيرة. وكان لحضارة تيويتواكان تأثير قوي في فن ومعمار المايا. وأثر مؤقتًا سقوط ثيوثوا الذي حدث في القرن السابع الميلادي على المايا. ومثال ذلك أن المايا أوقفوا حركة البناء في مدنهم وأوقفوا تشييد النصب التذكارية. وبعد مدة قصيرة دبت الروح مرة أخرى في حضارة المايا واستمرت في التطور لمدة ثلاثمائة سنة إضافية. ومع بداية القرن التاسع الميلادي، شيد المايا النصب التذكارية في كل مدينة. وتخلوا عن مراكزهم الرئيسية في الأراضي المنخفضة الجنوبية الواحد بعد الآخر. وفي النهاية غادروا المنطقة بصفة نهائية. ولا زال العلماء يحاولون اكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيار مجتمع المايا. ويعتقد بعضُ الخبراء أن الانهيار يُمكن أن يكون ناتجًا من عوامل مثل المرض وتلف المزروعات وانتقال مجموعات بشرية أخرى إلى منطقة المايا. ومع ذلك، يعتقد عددٌ من المؤرخين أن مزارعي المايا ثاروا ضد حكومة الرؤساء والكهنة لسبب ما، وساهموا بذلك في انهيار مجتمع المايا.

بقيت مراكز المايا في شمال يوكاتان مائة سنة بعد أن تلاشت مراكزهم الموجودة في الأراضي المنخفضة الجنوبية. وحتى بعد أن هجر المايا المراكز الشمالية، استمرت بقيّتهم في العيش في تلك المنطقة. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي، غزا التُولتيك . وهم شعب جاء من الأراضي المرتفعة لوسط المكسيك . يوكاتان. وأسسوا إمبراطورية في المكسيك عاصمتها تُولا، في شمال ما يعرف اليوم بمكسيكو سيتي، واستولوا على المدينة القديمة للمايا، تشيشن إتزا، وحكموا جميع السكان في شمالي مايا. وأثر التولتيك في فن وهندسة المايا، وأدخلوا عبادة الإله الثعبان المريش سموها كوكولكان. وانهارت تولا في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وانتهى حكم التولتيك ليوكاتان في القرن الثالث عشر الميلادي.

وعقب نهاية حكم التولتيك شيدت مجموعة من زعماء المايا عاصمة في مايابان وأعاد المايا بناء ثقافتهم من جديد حيث شيدوا مسلات حملت نقوشا .ومع ذلك، ظهرت تحولات في مجتمعهم. مثال ذلك، غلبت التجارة على المعتقدات الدينية التي كانت مهيمنة على ثقافة المايا. وأصبحت مدن المايا مراكز تجارية مزدهرة، وبدأ الناس يديرون التجارة بحرية ونشاط.

وحوالي سنة ١٤٤٠م ثار بعض زعماء مدن المايا على حكام مايابان وهزموهم. وبعد هذا أصبحت يوكاتان مقسمة إلى ولايتين. في بداية القرن السادس عشر الميلادي. استولى الغزاة الأسبان على بلاد المايا، وحوالي منتصف القرن السادس عشر الميلادي، قضوا تقريبًا على ما تبقى من المايا.

لا يعرف المؤرخون الكثير عن حكومة المايا. كل مدينة كانت تحكم المنطقة المحيطة بها، وربما كانت المدن الكبيرة تحكم عددًا من المدن الصغيرة. والغالب على الظن أن الحكام كانوا من رؤساء القبائل والرهبان، وربما كان هناك قائد كبير يحكم المدينة ويجمع بين السلطتين السياسية والدينية. ولم يتفق المايا قط على تشكيل حكومة مركزية. ولكن في المراحل الأخيرة من حضارة المايا، كان لحكام المدن مثل شيشن إتز و مايا بان سلطة على مجموعات كبيرة من السكان.

عَبَد شعب المايا عدة آلهة وإلهات كغيرهم من شعوب ذلك العصر. وهناك مخطوط للمايا يذكر أكثر من ١٦٠ من هذه الآلهة. ومثال ذلك أن المايا عبدوا إلهًا للذرة اسمه أهمون، وإلهاً للمطر عُرف باسم شاك، وإلهًا للشمس اسمه كنيش أهو، وإلهة للقمر اسمها إكسشيل. كان كل إله يُرتجى على جزء من حياة المايا. فكانت إكسشيل مثلاً إلهة الطب والغزل.

أدى الدين دورًا كبيرًا في الحياة اليومية للمايا. وكان لكل يوم في سنة المايا أهمية دينية خاصة، وكانت الاحتفالات الدينية تقام على شرف آلهتهم في أيام خاصة خلال السنة. وزعم المايا أن آلهتهم ذات قدرة على المساعدة والإيذاء. ومن أجل الحصول على مساعدة الآلهة، كان المايا يصومون ويصلون، ويقدمون القرابين وفق معتقداتهم، ويقيمون احتفالات دينية عديدة. وكانت الأيائل، والكلاب، والديكة الرومية تُذبح قرابين للآلهة تقربًا وتضرعًا، وكان المايا غالبًا ما يقدمون دماءهم والتي كانوا ينشرونها على أجزاء من الورق المصنوع من لحاء (قلف) الأشجار. وقدم المايا بعض القرابين البشرية، مثل إلقاء ضحايا في آبار عميقة أو قتلهم في مآتم القادة الكبار. وفي المدن، بنى المايا أهرامات عالية من الأحجار الكبيرة، وأقاموا على رأسها معابد. وكان الكهنة يتسلقون درجات الأهرامات ويقيمون الشعائر الدينية في المعابد، وكانت الاحتفالات الدينية الكبرى التي تتعلق بالسنة الجديدة عند المايا من الطقوس المقدسة وتُقام لكل شهر احتفالات.

ويؤدّي المايا شعائر خاصة عند دفن الموتى؛ فالجثث تُصبغ بالأحمر وبعد ذلك تُغطى بحصير من التبن ويوضع معها بعض الممتلكات الشخصية، ثم تُدفن تحت المنازل. بينما يدفن حكام المايا والشخصيات المهمة الأخرى، مع حليّهم النفيسة في الأهرامات. وكان الخدم يُقتلون ويدفنون معهم، إلى جانب المجوهرات وأدوات المنزل، لاستعمالها في العالم الآخر.

عاشت عائلات المايا مجتمعة، بما في ذلك الآباء، والأبناء والأجداد. يساهم كل فرد من أفراد العائلة في العمل، فالأطفال الكبار والرجال يقومون بالعمل الزراعي، مثل إعداد الحقول وتنقيتها من الأعشاب وزراعة المحاصيل. كما عملوا أيضًا بجانب الزراعة في أعمال القنص والصيد. وتقوم النساء والبنات الشابات بإنتاج ملابس العائلة، وإعداد الطعام، وتربية الأطفال الصغار وتزويد البيت بأخشاب الموقد والماء. ولم يكن للمايا مدارس، فالأطفال كانوا يتعلمون مهارات مختلفة من خلال ملاحظة الكبار ومساعدتهم.

شكَّلت الاحتفالات الدينية واحدة من أهم الأشكال المفضلة للترويح عند المايا. وأقيمت هذه المهرجانات في أيام خاصة خلال السنة. ويتخللها الرقص والأكل، وبالإضافة إلى هذا، كان للمايا لعبة مقدسة تشبه كرة السلة تُلعب في ملاعب صُممت لها بصورة خاصة. وكان اللاعبون يحاولون ضرب كرة من المطاط من خلال دولاب حجري بوساطة المرفق أو الخصر.

من أهم المنتجات والمحاصيل الزراعية التي اهتم بها المايا: الفاصوليا، والذرة، واليقطين. وشكلت الذرة الغذاء الرئيسي للمايا، وهيأت النساء الذرة الشامية بطرق مختلفة، حيث صنعن حلوى مسطحة من الذرة الشامية تسمى اليوم تورتيلياس (نوعًا من الخبز).

استعمل المايا الذرة الشامية كذلك لإنتاج نوع من المشروب يسمى بالش الذي يضاف إليه العسل. وزرع المايا منتجات زراعية أخرى، مثل الأفوكادو والطماطم، والفلفل الحار. وهيأ المزارعون حقولهم من خلال قطع الأشجار بالفؤوس الحجرية. وأحرقوا الأشجار والأغصان، وبعد ذلك استعملوا العصي لغرس البذور في الرماد، وبعد أن تصبح التربة ضعيفة، يعمل المزارعون على تهيئة أراض إضافية ونقل حقولهم إلى مواقع جديدة. وكانت الكلاب هي الحيوانات الأليفة الوحيدة لدى المايا، وربوا الديكة الرومية والنحل في حقولهم. واصطادوا الأيائل والأرانب وغيرها. وجمعوا القشريات من الأودية والبحر. كما قطفوا الفواكه والخضراوات من الريف.

استعمل الكهنة كذلك الرياضيات وعلم الفلك لتطوير نوعين من التقويم؛ الأول تقويم مقدس على حدٍّ قولهم يتكون من ٢٦٠ يومًا. وحمل كل يوم اسمًا مع واحد من أسماء عشرين يومًا ورقمًا من ١ إلى ١٣. وكان لكل اسم من العشرين يومًا إله أو إلهة مرتبطة به. وكان الكهنة يعتقدون أن باستطاعتهم التنبؤ بالحظ السعيد أو السيئ بوساطة دراسة تركيب الآلهة أو الإلهات والأرقام. وكان للمايا تقويم من ٣٦٥ يومًا مبني على مدار الأرض حول الشمس. وقسمت هذه الأيام على ١٨ شهرًا باحتساب ٢٠ يومًا لكل شهر زائدًا ٥ أيام عند نهاية السنة. واعتبر المايا هذه الأيام الخمسة الأخيرة في السنة سيئة الحظ للغاية. وخلال هذه المدة كانوا يصومون ويقدمون عدة قرابين ويتجنبون أي عمل غير ضروري. واستعمل المايا الأعشاب والسحر لمعالجة المرضى. وبالرغم من ذلك، لا يعرف العلماء إلا القليل عن معرفة المايا بالطب.

٢ – إمبراطورية الأزتيك:

كانت تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ، ومن هضبة المكسيك حتى نيكاراجوا. وكان الأزتيك قد جاءوا من الشمال في القرن الثالث عشر، وأنشئوا مدينة في وسط المستنقعات، وفي المكان الذي شاهدوا فيه نسراً كبيراً يأكل حية ضخمة. فاعتقدوا أنها إشارة من ربهم "**مكسيتلي**" لوقف سيرهم، وبناء عاصمتهم، التي ستحمل اسم مكسيكو. وسرعان ما تحدت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية. وسادت قوانين الأزتيك، وانتشرت آلهتهم في كل المنطقة. وتحدث الفلاسفة وعلماء الآثار عن عادات الأزتيك وما تركوه من قصور ومعابد وأهرامات، وعلينا ألا ننسى وحشية الأهالي في هذا الإقليم، وهذا العصر. وذلك أن الأزتيك كانوا يحبون الدماء، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله، ولكن على أساس احتفاظ الدولة بحق التضحية به، وكما نرى، بمجرد أن تطلب الآلهة تقديم القرابين والأضحيات لها. وقام الأزتيك بذبح عشرين ألف رجل، وبإحراق قلوبهم بعد انتزاعها من أجسادهم، كضحية لافتتاح معبد مكسيتلي. وكان الأزتيك يسلخون بعض البنات، وهن أحياء، في احتفالات عودة فصول معينة من كل عام. أما المجتمع فكان **أوليجاركياً** في أول الأمر، وله مجلس شورى، وينتخب رئيسين مدى الحياة: الأول لإدارة الأمن ولجمع الضرائب، والثاني لقيادة الجيش وللإشراف على الكهنة. ثم تفوق الثاني، وكان ينتخب من أفراد أسرة معينة، وأصبح إمبراطورياً وراثياً. وكانت السلطة تمر بعد وفاته إلى أخيه، أو إلى أقرب أقربائه، من ناحية الأم.

تألف مجتمع الأزتيك من أربع طبقات رئيسية هي: ١– طبقة النبلاء. ٢– طبقة العامة -3 . طبقة الأتباع ٤– طبقة العبيد. وعلى الرغم من هذا التقسيم الطبقي فقد ارتبطت عائلات من طبقة النبلاء بعائلات من طبقة العامة بصلات قربى وثيقة، وانتمت هذه العائلات كلها إلى مجموعات الكالبولي. وامتلك أفراد المجموعة مساحة من الأرض ملكًا مشتركًا. وكان يُسمح لكل عائلة أن تزرع قطعة كبيرة من الأرض تكفي لسد حاجاتها. وبالإضافة إلى أرض الكالبولي كان معظم النبلاء يمتلكون أراضي خاصة بهم أو أراضي كانوا قد حصلوا عليها من الحكومة لاستخدامها خلال شَغْلِهم لمناصبهم الحكومية. وشَكَّلَ العامة غالبية السكان، وعاش عددٌ كبيرٌ منهم على زراعة أراضي الكالبولي. وعمل الأتباع في الأراضي التي يملكها النبلاء، وكانوا يستمرون فيها وإن انتقلت ملكيتها إلى نبيل جديد. وكان العبيد يُعدّون ملكية خاصة، لكن أولادهم كانوا يولدون أحرارًا. وكان عدد كبير من العبيد أسرى حرب وعدد آخر اشتراه الأزتيك من جماعات أخرى. وهناك عبيد استُرِقُّوا؛ لأنهم كانوا مجرمين أو أناسًا عجزوا عن دفع ديونهم.

وكان للدين أهمية فائقة في حياة الأزتك. وكَرَّس الناس معظم أوقاتهم للعبادة، حتى أنهم كانوا يشنون الحروب، بصورة رئيسية بغية الحصول على أسرى يقدمونهم قرابين لآلهتهم. عبد الأزتك مئات من الآلهة. وكانوا يزعمون بأن لكل واحد منها سيطرة على حركة أو أكثر من الحركات البشرية، أو على مظهر أو أكثر من مظاهر الطبيعة. ولما كان اقتصاد الأزتك يعتمد على الزراعة كان لشعبهم عدد كبير من الآلهة الزراعية، منها سنتيوتل للذُرة، تلانوك للمطر والخصب، زايب توتك للربيع وإحياء الأرض.

كان للأزتك الكثير من الطقوس الدينية، ويُقام أكثرها أهمية أيام الزراعة والحصاد، ومناسبات أخرى خلال السنة الزراعية. وكان العديد من هذه الطقوس الدينية تهدف إلى ضمان محاصيل وفيرة حسبما كانوا يعتقدونه من عطف آلهتهم.

أَدَّت القرابين البشرية دورًا أساسيًا في معظم الطقوس الدينية. وكان الكهنة يشقون صدر الضحية الحية وينتزعون منها القلب، إذ كانوا يعتقدون أن آلهتهم تحتاج إلى قلوب ودماء بشرية كي تبقى قوية. وكان المتعبدون يأكلون، أحيانًا، أجزاء من جسد الضحية. وربما كانوا يعتقدون أيضًا أن قوة الشخص الميت وشجاعته تنتقل إلى كل من يأكل لحمه. وكان معظم الضحايا من أسرى الحروب أو العبيد، ولكن الأزتك كانوا يضحون بأولادهم لإلههم تيالوك.

كان التقويم الديني عند الأزتك يتألف من ٢٦٠ يومًا. وقد استخدم الكهنة التقويم لتحديد أيام السعد للقيام ببعض الأعمال، مثل بذر المحاصيل وبناء البيوت والخروج إلى الحرب. كما كان لهم تقويم شمسي يتألف من ٣٦٥ يومًا. وكان التقويم الأخير يتألف من 18 شهرًا، وكل شهر يتألف من ٢٠ يومًا، علاوة على خمسة أيام إضافية.

كان الأزتك يقيمون احتفالاً كبيرًا كل ٥٢ سنة، يُدعى ربط السنوات أو مهرجان النار الجديدة. وقبل بداية الاحتفال يطفئ الناس مواقد نيرانهم، ليشعل الكهنة نارًا جديدة فوق صدر أحد القرابين عند فجر دورة الـ ٥٢ سنة الجديدة. وكان الناس يقومون بوخز أنفسهم ليضيفوا دماءهم إلى القربان. ومن ثم يشعلون من هذه النار الجديدة نيران مواقدهم ثانية، ثم يحتفلون.

وكان الأزتيك يعرفون الذهب والرصاص والبرونز، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد، وكانت تجارتهم بدائية وتعتمد على المبادلة والمقايضة، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس، أو كمية من التبر في أنابيب من ريش الطيور، كعملة بدائية. وكانوا لا يعرفون العجلات أو الخيول أو أي دابة من دواب الحمل، فكان الحمالون يحملون كل ما يرغبون في نقله، ويسيرون في ممرات صغيرة وضيقة، شقها المساجين وسط الجبال أو الغابات وكانت نفس الممرات هي الطرق الوحيدة الموجودة في ذلك العصر، والتي كان كل من الحجاج والحملات العسكرية تستخدمها. وكان الحج إجبارياً كما كان يسمح بالإشراف على استبعاد القبائل المهزومة. وأما الحملات العسكرية فكانت تسهل تموين المعابد بالضحايا البشرية اللازمة لإرضاء الآلهة. وكانت الإمبراطورية تنقسم إلى عدد من الأقاليم، يتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي، سواء في الشؤون الإدارية أو السياسية. ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية، من ملابس وحبوب وفواكه ونسور حية وعقود من الذهب، كما كان يرسل عدداً معيناً من الرجال للخدمة في جيوش الحكومة الإمبراطورية. ولقد عاشت إمبراطورية الأزتيك منطوية على نفسها، ولم تتصل بإمبراطورية الإنكا، التي نمت إلى الجنوب، خاصة وأن الجبال والبحار والمستنقعات والغابات والحميات كانت تفصل بينهما.

٣ – إمبراطورية الإنكا:

كانت قد أنشأت في الأقاليم الاستوائية من أمريكا اللاتينية في بداية القرن الحادي عشر، وأصبحت تمثل تجربة تاريخية هامة لإقامة حكومة تعتمد على التوجيه، وعلى التخطيط، ولخلق مجتمع منظم وسط للفوضى، ولفرض نظام جماعي لشعوب متباينة تضم المزارعين والرعاة.

ولقد تمكن أحد رؤساء قبيلة الإنكا، من السيطرة على الإقطاعيين، ومن توحيد الهنود الحمر، ثم واصل خلفاؤه عملية مركزية الحكم من بعده وضموا أراضي السادة، وعملوا على مد الإمبراطورية على طول سواحل المحيط الهادئ، بشكل جعل من الهنود رعايا للإنكا.

وكان الإنكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسي لهذه الدولة، ويعتقد أنه من سلالة الشمس، ويمثلها على الأرض. وكان يسيطر على رؤساء القبائل أو **الكاباك**، والذين يشرفون بدورهم على رؤساء الجماعات والموظفين المسئولين. وكانت مجموعات الإنكا وجماعاتهم تشتمل على عشرة أو خمسين أو مائة أو خمسمائة ، أو ألف رجل، ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة آلاف ومائة ألف. وكان كل شيء يبدأ من الإنكا، وكان كل شيء ينتهي إليه. وكانت الإدارة متدرجة متسلسلة، ومتخصصة، وكان إختيار الضباط والمديرين وكبار الموظفين يقع بين الكاباك، ثم يتبع ذلك اختيار الضباط وأصحاب الحوانيت، ويقوم رئيس العشرة بأعمال الأمن العادية. أما الأراضي فكانت ملكاً للإنكا كما كانت في مصر القديمة ملكاً لفرعون، وكان على الأهالي زراعتها، على أن يقسموا المحصول إلى ثلاثة أقسام: الأول للشمس، أي للكهنة، والثاني للدولة، أي للعجزة والأرامل والأيتام، والثالث للمجتمع ويقسم بين الأسر الموجودة.

وكان العمل إجبارياً، كما كانت تنظيم أوقات الفراغ إجبارياً كذلك وبشكل لا يترك للفردية أي مجال، وكان الإنتاج يركز في مخازن عامة كما كان الاستهلاك محدداً ومخططاً. وكانت المساكن متشابهة، وكذلك الوجبات، من الذرة والبطاطا. وكان التماثل تاماً، والنظام دقيقاً والعقوبات صارمة، وكان هناك تحديد لعدد الملابس، ولأوقات تناول الطعام، وتحديد لأماكن الإقامة، ولساعات اللهو والفراغ. وأدى هذا التخطيط إلى تقليل الشخصية والفردية، وإلى زيادة الطاعة والسلبية.

وكان الأهالي يعرفون صهر النحاس وتشكيل البرونز ونسج الصوف وبناء القصور والمعابد والحصون، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد والعجلات والكتابة. ونجح النظام الشيوعي عند الإنكا، وضمن للأهالي حاجاتهم الضرورية، ومنع عنهم أخطار المجاعات. ورأى بعض المؤرخين أن هذه الإدارة الجماعية كانت هي كل شيء، وقضت على كل شيء فيما عداها، وحتى على الإنسان، الذي أصبح يمتاز بالكسل والخمول العقلي، ويرفض التغيير والتعديل.

والواقع أن إمبراطورية الإنكا قد أخضعت غيرها في الوقت الذي زادت فيها سلطات رأس دولتها، عن السلطات التي يتمتع بها أي رئيس أي دولة شيوعية. وكانت الإمبراطورية تهضم كل إقليم تستولي عليه وتخضعه لها، ولكنها تترك له آلهته، في نفس الوقت الذي تحاول فيه إدخال ديانتها وعبادة الشمس فيه. وكان الموظفون يعملون على تطبيق قوانين الإمبراطورية في هذه الأقاليم، كما كانوا يعملون على نقل الأسر والقبائل غير الخاضعة من منطقة إلى أخرى، حتى يصلوا إلى كسر شوكتها وإذابتها في النطاق الجماعي. وقدر العلماء عدد سكان إمبراطورية الإنكا بإثني عشر مليوناً وهو عدد يقارب عدد سكان إمبراطورية الأزتيك.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل كانت روايات الإسبانيين عن هذه الحضارات السابقة لهم روايات حقيقية علمية؟ وهل كان من حقهم أن يفرضوا حضارتهم وطريقة معيشتهم على غيرهم وبالقوة؟ وهل كان من حقهم نهب موارد الأقاليم وذهبها وإرساله إلى أوروبا؟

إذا كان في وسع الإسبان أن يصلوا إلى العالم الجديد، ومهما اتصفوا به من القسوة والتحكم فإنهم كانوا يحملون للأهالي في العالم الجديد وسائل حياة ونظم تسمح لهم بتحسين حالهم. فقد كانت الحضارات السابقة لكولومبس، وحتى المتفرعة منها، متأخرة عن حضارة أوروبا في ذلك الوقت بألفي سنة: وإذا كان الأزتيك يسلخون القرابين البشرية؛ والإنكا تنخفض بمستواهم إلى الكسل والسلبية، وتقوم قبائل البراري بأكلهم، فلا يمكننا إلا أن نرى تقدماً واضحاً مع مجيء الإسبانيين، الذين نزلوا بمستوى كل الهنود الحمر إلى مستوى العبودية.

وإذا رضي الأهالي أو ثاروا، فقد كان عليهم أن يخضعوا لحكم الغزاة، إذ لم تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم، أو للدفاع عن أنفسهم. فقد كان الإسبانيون مزودون بالخيول، ومهروا في ركوبها حتى أصبح الفارس وكأنه مربوط بفرسه، وكانوا مزودين بالبارود الذي يقتل عن بعد ويرعد مثل البراكين ويجعل الأهالي ينظرون إليهم كآلهة. لقد تفتحت أمريكا للغزو الإسباني بسهولة، وكان ساحلها الشرقي مملوءاً بآلاف الخلجان وآلاف المصبات والأنهر الصغيرة. وإذا كانت أوروبا قد نظرت إلى العالم الجديد كعقبة في سبيل الوصول إلى الهند، فإن هذه النظرة لا تمنع من كون أمريكا عقبة سهلة، بل ومحطة متوسطة يمكن عبورها والوصول منها وبها إلى الهند.

ب – حضارات أمريكا الشمالية:

أما **بقيـة القـارة** فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين، موزعين بدون حكومات وبدون حضارات هامة، وازدهرت الحياة المستقرة في المنطقة المدارية حيث كانت الأمطار تساعد على نمو النباتات، وحيث كانت الذرة تنبت بالأمطار وبدون زراعة. وكانت معظم القبائل الأخرى شبه مرتحلة، أو تعمل بالرعي أو الصيد. وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكماء لإدارة قبائل سكان **البميا** وغابات الأمازون ومراعي الشمال، وكانت هذه القبائل تعبد أصناماً معينة أو أنواعاً من الحيوانات، وكانت تأكل لحم الجاموس البري، وتدخن الطباق، وتعبر الأنهار في قوارب تنحتها من جذوع الأشجار، كما كانت تستخدم القوس والسهام. وكان الهنود الحمر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الانتصار عليهم ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها. وروى كولومبس نفسه أنه رأى بعض بقايا جسم بشري تطهى في قدر على النار، واستند في ذلك إلى أن الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر في نفس الوقت الذي يأكلون فيه لحوم الببغاوات.

وفيما يعرف الآن بالولايات المتحدة ، كانت الوحدة السياسية الرئيسية للهنود تتمثل في العشرة، وكان رئيس العشيرة يمثل القائد العسكري، بينما كان القائد السياسي والقضائي يسمى الساكيم (Sachem) ، كل الأرض كانت ملكا للعشيرة والقبيلة (كل قبيلة كانت تنقسم إلى عشائر)، حيث لم يعرف هؤلاء الملكية الفردية ولم يفهموها. أما ما سماه الرجل الأبيض (بوحشية) الهنود، إنما تعلمها هؤلاء من الرجل الأبيض الذي شجع الهنود على الحرب بشراسة عندما ظهرت المنافسة بين البيض للتعامل مع الهنود.